مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : …-….. Issn : 2353-043X
المجلد 04/ العـدد 02: (2017)، ص 88- 100

مكة و أوضاعها السياسية قبل الإسلام

الأستاذة: منصورية مليكة
جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر -2- الجزائر.

أتاح الموقع الجغرافي[1] الممتاز لمكة أن تحتل مكانة مميزة بين العرب في القديم، فهي عقدة تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد الشام أو القادمة من بلاد الشام تريد العربية الجنوبية، والتي كانت لابد أن تستريح في هذا المكان، ثم ما لبث أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل سر السفر وفائدته، فاحتكر تجار مكة التجارة في العربية الغربية وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط بلاد اليمن ببلاد الشام والعراق.

ومكة لم تكن لتساعد على الاستقرار لولا وجود بعض المياه الجوفية في باطن الأرض، والتي يمكن الوصول إليها من خلال حفر الآبار، وباعتبار مناخها قاري أي شديد الحرارة في الصيف قليل الأمطار في الشتاء، وقد وصفت أرض مكة في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾[2].

فالعوامل الجغرافية والمناخية لم تكن لتساعد على قيام مدينة مكة لولا توفر عاملي التجارة والمياه، التجارة باعتبار مكة تقع على طريق القوافل التي تصل بين اليمن والشام، أما العبادة فتمثلت في وجود بيت الله الحرام.

[1]- الموقع الجغرافي لمكة: تقع مكة في منطقة الحجاز في وسط شبه الجزيرة العربية وهي بلد في واد غير ذي زرع، تشرف عليها جبال جرد ليس بها ماء غير ماء زمزم، ويختفي هذا الواد خلف تلك الجبال لدرجة أنّ أبنيته لا ترى للقادم إلى مكة، إلا إذا أطلّ عليها، مما سهل على المكيين الدفاع عنها، أنظر: قيس حاتم الجنابي، تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط1،دار صفاء للنشر،الأردن،2014م، ص273.

[2]- القرآن الكريم، سورة إبراهيم،الآية37 .

1 – تأسيس مدينة مكة

يرى المؤرخون العرب أن أول من أسس بيت الله الحرام آدم عليه السلام وذلك في قولهم " لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام من الجنة، قال: يا آدم ابن لي بيتا بحذاء بيتي الذي في السماء تتعبد فيه أنت وولدك كما تتعبد ملائكتي حول عرشي"[3]، ثم ما لبث هذا البيت أن اندثر وأعاد بناءه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وللبيت الحرام فضل كبير على أهل مكة، وقد عرف بتسميات كثيرة منها ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[4] ، وفي قوله تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[5] ، وكذا في قوله جل شأنه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[6]، كما ذكره بمسميات أخرى مثل: البلد، البلد الأمين ،البيت الحرام و غيرها[7].

ولم يتم الحصول على اسم مكة من الكتابات الجاهلية، أما الموارد التاريخية المكتوبة باللغة الأجنبية فقد ذكر في كتاب بطليموس "الجغرافيا" مدينة دعيت (مكربة) (مكربا) Macoraba، وقد ذهب الباحثون أن المدينة المذكورة هي مكة ولفظة مكربة عربية، أصابها التحريف ليناسب النطق اليوناني، وأصلها من الكلمة العربية (مقربة) وهي من التقريب، حيث كان رجال الدين يلقبون بمكرب أي مقرب، وقد عاش

---

[3]- عبد الله الأحمد الأزرقي، أخبار مكة، ط1، تح:عبد الملك بن عبد الله بن دهيس، مكتبة الأسدي، الرياض، السعودية، 2003م، ص82.

[4]- القرآن الكريم ، سورة آل عمران ،الآية 96.

[5]- القرآن الكريم ، سورة الأنعام ، الأية 92.

[6]- القرآن الكريم ، سورة الحج ، الأية 29.

[7]- لمعرفة أصل هذه التسميات ، أنظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج5 ، دون طبعة ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1996م ، ص ص181 ، 182 ، و كذلك أنظر، النويري ، نهاية الآرب في فنون الأدب ، ج1 ، ط1، تح: مفيد قمحية و حسن نورالدين ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان،2004م ، ص 291.

بطليموس في القرن الثامن الميلادي[8]، وقد أرجع أحدث الباحثين بأن اسم "مكة" مشتق من اللغة البابلية لأن"مكا" في هذه اللغة تعني البيت وهو اسم الكعبة عند العرب[9].

ويذكر المؤرخون العرب أن إبراهيم عليه السلام خرج من بابل واتجه إلى الشام يدعو إلى عقيدة التوحيد، ثم انطلق مرتحلا إلى مكة، فكانت اليمن تشهد في تلك الفترة قحطا وشدة وغلاء، فارتحل إلى مصر، وذكروا إخدام ملك مصر هاجر لسارة زوجة إبراهيم[10]، ثم زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر وحملت هذه الأخيرة بإسماعيل ، وصدور الأمر من الله عز وجل إلى إبراهيم بالقدوم مع زوجته وولده إسماعيل إلى الحجاز، وإسكانها في بطن مكة[11] وبعد ذلك نزول العماليق وجرهم* عليهما في بطن مكة، وتعلم إسماعيل العربية من هاتين القبيلتين، ثم زواجه بامرأة من قبيلة جرهم اليمنية، وتكاثر نسل إسماعيل حتى ذهب النسابة العرب إلى أن جميع عرب الشمال العدنانيون يرجعون في نسبهم إلى إسماعيل عليه السلام[12].

ويكتنف الغموض أمر مكة منذ عهد إسماعيل عليه السلام،فقد كان هناك خلاف بين النسابة العرب في عدد الآباء بين إسماعيل وعدنان فقد سئل الإمام مالك رضي الله عنه عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم عليه السلام فكره ذلك وقال: من أين له علم بذلك؟، فقيل له: فإلى إسماعيل ،فأنكر ذلك أيضا، وقال من يخبره به؟ [13]، ورغم هذا فإن المؤرخون العرب يذكرون أن إسماعيل عليه السلام ولد له اثني عشر ولدا ذكرا، وحينما بلغ إسماعيل ثلاثون سنة أمر الله إبراهيم ببناء الكعبة، ولما قبض إسماعيل قام

---

[8]- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب، ج4، ط2 ، جامعة بغداد ، العراق، 1993م، ص ص 9، 10

[9]- جورجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ط2 ، مطبعة الهلال ، مصر، 1922م، ص556.

[10]- ابن كثير، البداية و النهاية ، ج1 ، ط2 ، مر: محمد ناصر الألباني ، دار الإمام مالك للكتاب ، باب الواد ، الجزائر، 2009م، ص 206.

[11]- نفسه ، ص 211.

*العماليق :قبيلة عربية تنسب إلى عمليق بن لاوذ بن إرم تفرقوا في الجزيرة العربية و منهم من نزل الحرم ، أ نظر السعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1 ط1، مر: كمال حسين مرعي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 2005م، ص 34.

*جرهم قبيلة : عربية و هي تنسب إلى جرهم بن عابر بن سبأ بن أرفخشد بن سام بن نوح، أنظر: البلاذري، انساب الأشراف ،ج1، دون طبعة ، تح: محمد حميد الله، دار المعارف ، مصر ، د.ت،ص 4.

[12]- عبد الله الأحمد الأزرقي ، المرجع السابق ، ص 42.

[13]- ابن كثير، المرجع السابق ، ص 663.

بالبيت بعده ابنه نابت، ثم غلبت جرهم ولد إسماعيل عليه السلام، وكان ملكهم الحارث بن مضاض هو أول من ولي البيت منهم، ثم غلبت خزاعة جرهم، وتولت ولاية البيت، وكان عليهم يومئذ عمرو بن لحي[14].

وكان هذا الأخير حين غلبت خزاعة على البيت، ونفت جرهم من مكة قد جعلته العرب ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة،لأنه كان يطعم الطعام ويكسو في الموسم وربما نحر في الموسم نحو عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة[15]، وبذلك فعمرو بن لحي* غير دين إبراهيم وبدله وبعث العرب على عبادة الأوثان.

وقد استعان عمرو بن لحي في تثبيت ملكه ببني كنانة وهي من القبائل العدنانية، ولما استبد الأمر لعمرو ومن جاء بعده بأمر مكة، تركوا إلى كنانة أمورا تخص الحج وشعائره، وكان لعمرو بن لحي أثر في تكوين مكة وفي إنشاء معبدها، وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لمكة، حيت أصبح لهذه المدينة شأن كبير عند القبائل العربية، وذلك بإتيانه بأصنام نحتت نحتا جيدا وعلى رأسها الصنم "هبل"، ووضعها في البيت، وبذلك جلب أنظار أهل مكة والقبائل المجاورة نحوها فصارت تقبل عليها، وأصبح للبيت شهرة بين العرب[16].

2- مكة في عهد قصي

ولد قصي في مكة وهو ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وكانت خزاعة مازالت على ولاية البيت، وهلك كلاب وترك ولدين هما قصي وزهرة مع أمهما فاطمة بنت عمرو فتزوج ربيعة بن حرام وهو من قبيلة قضاعة أمهما، وكان زهرة رجل بالغ، أما قصيا فكان فطيما، فاحتمل ربيعة زوجته وابنها فولدت له رزاحا[17]، وكان قصي ينسب إلى ربيعة بن حرام، فنازع رجلا من قضاعة يقال له رفيعا ،فلما اشتد الأمر بينهما قال رفيع:

---

[14]- المسعودي ، المرجع السابق ، ج2 ، ، ص 41.

* عمرو بن لحي: أول من غير دين إبراهيم عليه السلام، فقد روي أنه خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فرآهم يعبدون الأصنام، فسألهم عن سر عبادتها، فأخبروه أنهم يعبدونها للنصرة و الاستسقاء، فطلب منهم إعطاءه صنما يعود به إلى أرض العرب ليعبده أهلها، فأعطوه هبل، فعاد به إلى مكة و أمر الناس بعبادته و تعظيمه، أنظر: السهيلي، الروض الأنف ، ج1 ،دون طبعة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 2008م،ص101.

[15]- السهيلي ، المرجع السابق، ص 102.

[16]- جواد علي ، المرجع السابق ،ص ص 14،15.

[17] - عبد الله الأحمد الأزرقي ، المرجع السابق ، ص 170،

ألا تلتحق ببلدك وقومك؟ فإنك لست منا، فرجع قصي إلى أمه فقال: من أبي؟ فقالت: أبوك ربيعة، فقال: لو كنت ابنه ما نفيت؟ فقالت: أوقد قال هذا؟ فوالله ما أحسن الجوار، ولا حفظ الحق، أنت والله يا بني أكرم منه نفسا وولدا ونسبا، وأشرف منزلا، أبوك كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وقومك بمكة عند البيت الحرام فما حوله، فقال: فوالله لا أقيم هنا أبدا[18]، فرجع إلى قومه في مكة، وقد عرف عن قصي أنه كان رجلا جليد حازما بارعا، فخطب إلى حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي ابنته حبّى، فأثبت حليل النسب، ورغب في الرجل فزوجه، وحليل يومئذ على الكعبة وأمور مكة[19]، ثم ما لبث قصي أن آلت إليه ولاية مكة، وقد ولدت له حبّى، عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبدا، وكثر ماله وعظم شرفه، وهلك حليل[20]، وهناك العديد من الروايات التي أوردت خبر هذه الولاية منها:

أنه لما حضرت حليلا الوفاة، جعل ولاية البيت إلى ابنته زوج قصي، فقيل له أنها لا تقوم بفتح الباب وغلقه، فجعل ولاية البيت إليها، وفتح الباب وغلقه لرجل من خزاعة، وهو غبشّان الخزاعي، فباعه إلى قصي ببعير وزق خمر[21].

أما الرواية الثانية : أن رزاح أخو قصي من أمه قد ساعده على تولي أمر البيت وذلك لأن قصي رأى أنه أولى بالكعبة، وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر، وأن قريشا قرعة إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده، فكلم رجالا من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة فأجابوه، وطلب مساعدة أخيه فأجابه أيضا[22]، وخلاصة الرواية أن قصيا استولى على مكة وحكمها بالقوة ، بينما تذهب الرواية الثالثة، أن حليلا أوصى بولاية البيت لقصي والقيام بأمر مكة من بعده، وذلك أنه حين انتشر له من ابنته من الأولاد ما انتشر قال: أنت أولى بالكعبة والقيام عليها وبأمر مكة من خزاعة[23].

---

[18] - ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير، ج1، ط1 ، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، 2001م، ص 50.

[19] - عبد الله الأحمد الأزرقي ، المرجع السابق ، ص 171.

[20] - ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج1، دون طبعة ، تح: طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د ت، ص 247.

[21]- المسعودي، المرجع السابق، ج2، ص45.

[22] - ابن هشام، المرجع السابق، ص248.

[23] - الطبري، تاريخ الطبري،تاريخ الأمم و الملوك، ج2،ط1، مر: نواف الجراح، دار صادر، بيروت، لبنان، 2003م،ص 257.

من خلال المقارنة بين هذه الروايات الثلاث يبدو أن قصيا قد تولى الحكم عن طريق وصية حليل إليه، فليس من المعقول أن يوصي بولاية البيت إلى ابتنه وهي عاجزة عن القيام بأموره، وفي بعض الروايات أن غبشّان الخزاعي هو ولد حليل فكيف له أن يتجاوز حليل ابنه ويعهد بالوصية إلى ابنته، وإذا كان غبشّان ليس ابنه فكيف بحليل أن يتجاوز قصي زوج ابنته، أما قولهم أن قصيا استولى على الحكم بالقوة، فكيف نفسر جنوحه إلى التحكيم، حيث يذكر ابن كثير أن قصيا قد استعان بمن أطاعه من أحياء العرب غلى حرب خزاعة واجلائهم عن البيت الحرام، وتسليمه إلى قصي فكان بينهم قتال كبير ودماء غزيرة ، ثم تداعوا إلى التحكيم، فتحاكموا إلى يعمر بن عوف*، فحكم بأن قصي أولى بالبيت من خزاعة[24]، إن المقاومة التي واجهت قصيا من طرف خزاعة فهذا أمر طبيعي ، لأن هذه القبيلة ليس من السهل أن تتنازل عن هذا المكسب و الذي احتفظت به لمدة سنوات عديدة.

3 – الأعمال التي قام بها قصي

لما استقام الأمر لقصي، وعشر على من دخل مكة من غير قريش، قام بتجميع أبناء قبيلته فدعي قصيا مجمعا بجمعه قريش، وبقصي سميت قريش قريشا، وكان يقال لهم قبل ذلك "**بنو النصر**"[25]، ورتّب قريشا على منازلها في النسب بمكة على النحو التالي:

أ - قريش البطاح : وهم الذين أنزلهم قصي بطحاء مكة، فانتشروا بين جبليها وهم : قبائل عبد مناف، وبني عبد الدار، وبني عبد العزى بن قصي وزهرة، ومخزوم، وتميم بن مرة، وجمح وسهم وعدي، وهم لعلقة الدم، وبنو عتيك بن عامر بن لؤي[26]، وهذه القبائل هي قلب قريش و أشرافها، ومركز الثقل في مكة، بنوا البيوت واستقروا مثل الحضر، وانصرفوا إلى العمل التجاري وخدمة الكعبة، ملكوا الأرزاق والأملاك، فازدادت ثروتهم وعاشوا حياة مترفة[27].

---

*يعمر بن عوف: هو يعمر بن عوف بن كعب بن ليث بن عامر من كنانة،أحد حكام العرب من قريش في الجاهلية، كان يقال له (الشدّاخ) لشدخه الدماء بين خزاعة و قريش، أنظر : اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج1، شركة الأعلمي، بيروت، لبنان،2010م،ص 197.

[24] - ابن كثير، المرجع السابق، ص 676.

[25] - ابن سعد، المرجع السابق، ص 53.

[26] - المسعودي، الرجع السابق، ج2، ص 76.

[27] - محمد سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز، ط5، دار النفائس، بيروت، لبنان، دت، ص 31.

ب – **قريش الظواهر:** وهم الذين انزلهم قصي في ظاهر مكة أي خارجها، وهم بنو محارب والحارث بن فهر وبنو الأدرم بن غالب بن فهر، وبنو هصيص بن عامر بن لؤي [28]، ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالي والعبيد، فعاشوا في أطرافها حياة بدوية ولم يبلغوا درجة قريش البطاح في الاستقرار والغنى[29]، ويبدو أن مكة قد ضاقت بساكنيها على أيام قصي، فعمد إلى تقطيع الأشجار التي حول الحرم، لتهيئة الأرض من أجل بناء مساكن جديدة وإسكان الناس فيها، وكان الناس قبل ذلك قد هابت تقطيع هذه الأشجار خوفا من العقاب، يقول ابن سعد : وضاق البلد وكان كثير الشجر، فهابت قريش قطع ذلك في الحرم، فأمرهم قصي بقطعه وقال: إنما تقطعونه لمنازلكم وخططكم، بهلة الله على من أراد فسادا، وقطع هوبيده وأعوانه، فقطعت حينئذ قريش وسمته مجمعّا، لما جمع من أمرها وتيمنّت به وبأمره، وشرفته قريش و ملكّته[30]، ونتج عن تولي قصي الحكم في مكة تنظيمات سياسية أحدثها من أجل تنظيم إدارة المدينة سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي وأهمها :

1 – الملأ : و يمثل المظهر الأول لتحلي سيطرة زعماء مكة السياسي ، وتشكل من سادات مكة ووجوهها ، وأشرافها، وأولي الأمر فيها، لم يكونوا كلهم أثرياء، اعتلوا هذا المنصب إما لذكائهم ولرجاحة عقولهم وخبرتهم، أو لحسبهم وشرفهم، ولا يمنع من وجود تنافس بينهم مع حرصهم على حماية مكتسباتهم، إنهم جماعة المحافظين لا يقبلون تجديدا ولا تطويرا[31]، وكانت التقاليد العربية تفرض على شيخ القبيلة أن يتشاور مع رؤساء الملأ.

2 – دار الندوة : وهي دار بناها قصي، كان يتم فيها التشاور مع رجال الملأ، ويتحدثون فيها على حروبهم وأمورهم، ويعقدون الألوية ويزوجون من أراد التزويج[32]، وجعل قصي بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها[33]، ولا تخرج القوافل التجارية إلا منها ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفا لها[34]، إلا أن قصي قد حصر حق الدخول لهذه

---

[28] - المسعودي، المرجع السابق، ص76.

[29] - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 30.

[30] - ابن سعد، المرجع السابق، ص 52.

[31] - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 31.

[32] -البلاذري، المرجع السابق، ص 52.

[33] - ابن هشام، المرجع السابق، ص257.

[34] - ابن سعد، المرجع السابق، ص52.

الدار إلا لمن بلغ الأربعين سنة للمشورة[35]، وقد أحدث قصي هذه الدار ليحكم زعامته على أهل مكة.

ولبساطة المجتمع في مكة فإن الاجتماعات كانت تتم بصورة تلقائية وعند الحاجة، وكان الهدف من كل هذا هو الوصول إلى قرارات الإجماع للخروج من الأزمات التي قد تطرأ على مجتمع مكة، وفي حال الاختلاف فإن الرجوع إلى قصي هو الفيصل، لأن أمره في قومه كالين المتبع لا يعمل بغيره[36]، أما بعد وفاة قصي فلم يظهر زعيم في مكة يحظى بمثل هذه المكانة التي حظي بها قصي في قومه فرجال الملأ متناظرين في مكانتهم وحقوقهم ومن ثمّ كان من الضروري الحصول على موافقة الجميع على القرارات التي يراد لها التنفيذ والاحترام.

وقد بذل رجال الملأ المكيين جهودا كبيرة عند اتخاذ القرارات المهمة في المناقشات والمساومات من أجل الوصول إلى قرارات تحظى برضى الجميع، وقد نجحوا بصورة ملحوظة بسبب قدرتهم العالية على المناقشة والإقناع بسبب مزاولتهم لمهنة التجارة[37].

3 – الرفادة : وهو مال يخرجه أهل قريش، وأمر قصي بإنفاقه على طعام الحجاج وشرابهم فقال: يا معشر قريش إنكم جيران الله وسكان حرمه والحجاج ضياف الله وزوار بيته، فترادفوا حتى تصنعوا لهم طعاما وشرابا في أيام الحج ينال منه من يحتاج إليه، فلو اتسع مالي لجميع ذلك لقمت فيه دونكم[38].

إن هذه الوظيفة ستوطد العلاقات بين القبائل العربية ومكة، خاصة أن توفير الطعام للحجيج في بيئة جغرافية فقيرة من حيث الموارد الطبيعية ستجعل مكة تنعم بالأمن لها ولقوافلها التجارية التي ستمر بأراضي القبائل الزائرة، وإطعام الطعام فضيلة حميدة سترفع من شأن مكة بين القبائل العربية باعتبارها من مكارم الأخلاق.

4 – السقاية: وهي توفير المياه للحجيج وقد فرضها قصي مع الرفادة، حيث كان يضع حيضا للماء من أدم فيسقي فيها بمكة ومنى وعرفة، فجرى بذلك بأمره في الجاهلية حتى قام الإسلام[39].

---

[35]- عبد الأحمد الأزرقي، المرجع السابق، 176.

[36] - ابن هشام، المرجع السابق، ص 257.

[37] - هاشم يحي الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2008م، ص 271.

[38] - البلاذري، المرجع السابق، ص 52.

[39] - ابن سعد، المرجع السابق، ص 54.

5 – اللواء : وهي وظيفة استحدثها قصي، واللواء هو الراية لا يمسكها إلا صاحب الجيش المسؤول عن قيادة الجند وقت الحرب[40].

وكان قصي قد تولى السقاية والرفادة والندوة واللواء بالإضافة إلى الحجابة وهذه الأخيرة تمّ فيها حراسة الكعبة وهي سدانتها وتولي حفظها، والاحتفاظ بمفاتحها[41]، فلما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه إلى ابنه عبد الدار، وكان أكبر ولده، وإنما خصصه بكل هذا لأن بقية إخوته قد شرفوا في زمن أبيهم، فأحبّ قصي أن يلحق بهم عبد الدار في السؤدد، فكان إخوته لا ينازعونه في الأمر لكن بعد أن هلك الإخوة، تنازع أبناؤهم في هذا الأمر اختلفوا اختلافا كبيرا وانقسمت بطون قريش إلى فرقتين، فرقة حالفت عبد الدار و فرقة حالفت عبد مناف، لما كانت الأمور تسير إلى الحرب تداعوا إلى الصلح فأبرموا حلف المطيبين* على أن تكون الرفادة و السقاية في بني عبد مناف،وأن تستقر الحجابة واللواء في بني عبد الدار[42].

كان هذا الحادث قد ترك أثره في المجتمع المكي، وخوفا من تجدده قام زعماء مكة باستحداث وظائف جديدة من أجل خلق التوازن في هذا المجتمع وقطع الطريق أمام أي خلافات قد تؤدي إلى الحرب أو الانقسام من جديد وهي:

- **العمارة :** وهو ألا يتكلم أحد في المجلس الحرام بهجر ولا رفث، ولا يرفع فيه صوته، وكانت هذه الوظيفة في يد بني عبد المطلب[43].
- **الأشناق :** وهي جمع الديات وأموال المغارم وكانت في يد بني تميم[44].

---

[40] - ابن هشام، المرجع السابق، ص271.

[41] - ابن كثير، المرجع السابق، ص 677

* حلف المطيبين: وهو حلف كان بين زعماء قريش، لفض النزاع الذي شّب بين عبد مناف و بني عبد الدار، فدخل بنو أسد وبنو تميم و بنو الحارث في حلف مع بني عبد مناف، أما بني مخزوم و بنو سلمى و بنو جمح و بنو عدي ممع بني عبد الدار، و سمي هذا الحلف بحلف المطيبين لأن بعض نساء بني عبد مناف أخرجن جفنة مملوءة طيبا فغمس القوم أيديهم فيها فتعاهدوا و تعاقدوا هم و حلفائهم، أنظر: ابن هشام، المرجع السابق،ص ص 262-264.

[42] - ابن كثير، الرجع السابق، ص 679.

[43] - ابن عبد ربه، العقد الفريد،ج3، ط3، تح: أحمد أمين و آخرون، مطبعة لجنة الأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1960م، ص 115.

[44] - نفسه، ص 114.

- **القبة والأعنة :** فأما القبة فكانوا يضربونها لتجميع سلاح الجيش أما الأعنة وهي قيادة خيل قريش في الحرب وكانت هذه الوظيفة في يد بني مخزوم[45].

- **السفارة :** وظيفتها الاتصال بالقبائل الأخرى في الحروب والمفاوضات وهذه الوظيفة كانت في أيدي بني عدي[46].

- **الأيسار والحكومة :** أما الأيسار فهي الإستقسام بالأزلام والتي يضرب بها عند كبير الأصنام وهو هبل، وكانت هذه الوظيفة في يد بني جمح، وأما الحكومة فهي وظيفة تفصل بين المنازعات والخصومات التي تخص الأموال المحجرة والتي سموها لآلهتهم وكانت هذه الوظيفة في يد بني سهم[47].

- **العقاب والمشورة :** العقاب وهي راية قريش، وكانت في يد بني أمية، أما المشورة فإن رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر إلا إذا عرضوه على صاحبه وكانت هذه الوظيفة في يد بني أسد[48].

4 - تأثير التجارة على النظام السياسي في مكة: أصبحت مكة مركزا تجاريا باعتبارها حرما ومنطقة مقدسة وبأنها نموذجا للجمع بين كونها مركزا للحج ومكانا للتسوق، ومن ناحية أخرى فهي محرمة ولا يسمح فيها بإراقة الدماء وبسبب هذه الحقيقة استقطبت الأفراد للإقامة فيها والزوار لزيارتها على مدار السنة وغدت مكانا يمكن للأفراد الحضور إليه بدون أن ينتابهم شعور بالخوف والازعاج[49].

وقد كان أبناء القبائل العربية ينظرون إلى أبناء قبيلة قريش نظرة إكبار واحترام فيعدونهم أهل الله وحماة بيته المقدس مما سهل عليهم عقد أحلاف تجارية مع القبائل التي تقع مواطنها على طرق القوافل التجارية لضمان سلامة هذه القوافل تجاه تلك

---

[45] - نفسه.

[46] - نفسه.

[47] - نفسه، ص115.

[48] - نفسه.

[49] - باتريشيا كرون، تجارة مكة و ظهور الإسلام،ط1، تر: آمال محمد الروبي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2008م، ص 289.

الاعتداءات التي قد تتعرض لها من قبل أبناء تلك القبائل[50]، و قد دعيت تلك الأحلاف* التجارية بالإيلاف[51].

مارس القرشيون العمل التجاري كوسطاء في بادئ الأمر، ثم كتجار وهيّأ الصراع المستمر بين الفرس والبيزنطيين أن تزدهر التجارة في مكة، وقد كانت الطريق بين العراق والشام مقفلة بسبب العمليات العسكرية، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تنزل فيها[52]، وكانت السلع التي يتاجر بها في مكة تشترك في كونها عربية وإن ثلاثة منها كان يتم تصديرها للخارج وهي : الفضة والذهب والعطور[53].

نظم القرشيون رحلتين تجارتين في العام، ففي فصل الصيف تقصد قوافلهم بلاد الشام حاملة بضاعة الهند وتزور غزة و أيلة وبصرى، ثم تعود بعد أن تنفذ عملية البيع والشراء محملة بالبضائع من جديد، ومنها الحبوب، الزيت والخمور والأسلحة والمنسوجات والجواري، وتقصد قوافلهم اليمن في فصل الشتاء، أما تجارتهم مع الحبشة فكانت تجري عن طريق البحر[54]، وقد ورد ذكر لهاتين الرحلتين في القرآن الكريم[55].

---

[50] - هاشم يحي الملاح، المرجع السابق، ص 277.

*-

[51] - ابن سعد، المرجع السابق، ص 78.

* الأحلاف: و القصود بها الاتحادات القبلية و الحلف قد يكون بين قبيلتين أو أكثر و قد يطول أو يقصر بحسب دوام المصلحة التي دعت إلى عقده،و يكون للقبيلة الأقوى حق الزعامة ، و قد يتفكك هذا الحلف بسبب الإخلال بأحد الشروط المتفق عليها، و ربما يدوم الحلف زمنا طويلا، أنظر: البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلدان و المواضع، ج1، دون طبعة، تح: مصطفى السقا، عالم الكتب بيروت، لبنان، د ت، ص 53، وأنظر كذلك: جواد علي، المرجع السابق، ج1، ص 514.

[52] - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 30.

[53] - باتريشيا كرون، المرجع السابق، ص 261.

* أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم(البحر الأحمر) ، مما يلي الشام، و قيل هي آخر الحجاز و أول الشام، أنظر يافوت الحموي،المرجع السابق، ج1، ص 21.

* بصرى: مدينة من أعمال دمش، وهي مشهورة عند العرب قديما وحديثا، أنظر: ياقوت الحموي، المرجع السابق، ص .441

54 - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 30.

[55] - القرآن الكريم، سورة قريش.

مكة و أوضاعها السياسية قبل الإسلام

وازداد ازدهار مكة التجاري بعد سقوط دولة سبأ في اليمن، وكان للتجارة أهمية كبيرة في حياة مكة حيث أدت إلى ثراء سكانها[56]، واستفاد القرشيون من التجارة بما فرضوا من المكوس على البضائع والضرائب على القوافل المارة على أراضيهم، وشاركت كافة طبقات المجتمع في العمل التجاري ومن لم يساهم بماله كان يعمل دليلا، ونتج عن العمل التجاري الربّا والذي هو مظهر من مظاهر الحركة التجارية، والدّين والرّهن، وتطلب هذا العمل تعلم القراءة والكتابة لضبط الحسابات التجارية[57].

فرض التعامل التجاري الواسع على تجار مكة تداول مختلف أنواع العملات، وكان من أبرزها الدينار البيزنطي وهو عملة ذهبية، والدرهم الساساني وهو عملة فضية، ونظرا لأنه لم يكن لأهل مكة عملة خاصة بهم، فإنهم كانوا يتعاملون بكلتى العملتين ويقدّرون قيمتها على أساس وزنها باعتبارها معدنا من المعادن، هذا الواقع الاقتصادي في مكة يفسر لنا كثرة التعابير المالية والتجارية التي استعملها القرآن الكريم كالحساب والميزان والقسطاس والذرة والمثقال والقرض[58].

استتبع العمل التجاري في مكة قيام أسواق كثيرة منها سوق عكاظ أعظم أسواق العرب، وقد اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمسة عشرة سنة، ولا يخفى أن مثل هذه الاجتماع حال من أحوال الحضارة[59]، يتم فيه التبادل التجاري والصناعي بالإضافة إلى التبادل الفكري والثقافي، وهنا يظهر عامل التأثير والتأثر، حيث كان الشعراء ينشدون قصائدهم ويلقي الخطباء خطبهم، والتي أدت إلى نوع من الوحدة اللغوية في غياب الوحدة السياسية

وقد عملت وسائل الاختلاط كالتجارة إلى إخراج مكة من عزلتها والاحتكاك بالمناطق الحضارية، وباعتبار مكة مركز الحياة الوطنية في بلاد العرب حيث كان ينصب حول الكعبة 260 صنما وهي تمثل جميع الآلهة التي كان العرب يعبدونها[60]، فالدين في مكة لعب دور الموحد للنظام السياسي لأنها أصبحت مركزا روحيا لجميع العرب، فانعكس

---

[56] - جواد علي، المرجع السابق،ج7، ص 285.

[57] - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 30.

[58] - هاشم يحي ملاح، المرجع السابق، ص 282.

[59] - مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ط5، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1999م، ص 96.

[60]- سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ط1، تر، عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،1961م، ص 9.

هذا على الحياة الاقتصادية فيها، حيث غدت من أهم المراكز التجارية في الجزيرة العربية.

مما تم عرضه نستطيع القول أن مكة قد شكلت كيان سياسي مستقل بذاته، وذلك لحيازتها على جميع أركان دولة المدينة، فهي تتشكل من إقليم محدد هو مدينة مكة، تمارس عليه سيادتها الفعلية، وتتكون من سلطة حاكمة تمثلت في رجال الملأ الذين يمارسون السيادة عن طريق الإدارة والحكم وفقا للنظام القبلي السائد آنذاك في الجزيرة العربية، ودون تدخل سلطة أجنبية، كما شكلت قبيلة قريش عنصر الشعب المستقر على هذا الإقليم.

وبرغم عدم وجود سلطة قضائية لفض النزاعات إلا أن السلطة الحاكمة في مكة استطاعت حل هذه النزاعات باللجوء إلى العرف القبلي، واستطاعت بذلك التمتع بالاستقرار خاصة منذ عهد قصي بن كلاب.